أ.د.بوحسون العربي
أ.شهاب سامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم الفلسفة
-جامعة تلمسان-

نسق القرابة الأمومي عند طوراق الهقار

تمهيد:

لقد اقتصر الاهتمام عند كتابة جزء كبير من تاريخ إفريقيا على مصادر خارجية, فانتهى ذلك إلى رؤية لا تكشف عن المسار المرجح عن هذه القارة ومنها"الصحراء الكبرى" التي صورت على أنها فضاء منيع يحول دون امتزاج الإثنيات, فوجدنا أنفسنا من واجبنا الاهتمام بسكان هذه الصحراء"طوارق الهقار". ولا يمكن أن نجد خيار سوى التنقل إلى مدينة تمنراست بأقصى الجنوب. وإن كان تحريف حقيقة تاريخية عن الطوارق كانتسابهم إلى السلف الأمومي المنحدر عن ملكة الطوارق"تينهينان", وإدعاء بأن القرابة أمومية ما هو إلا فضاء أنثروبولوجي فارغ أنسج حوله الرحالة والمغامرون قصصا وروايات أبعد ما يكون عن واقع لمنطقة ارتكزت على الطابع الأسطوري في ثقافة الآخر. وكانت النتيجة النهائية أن الزواج الأحادي هو القاعدة الغالبة عندهم, وأن الانتساب إلى الأم "القرابة الأمومية" لا أساس له من الصحة. وما سر استقرار القرابة الأمومية إلا تفوق المرأة في العائلة البربرية.

إن النظام العائلي المعتمد على الأم الذي تختص به المجتمعات الإفريقية على الأقل في أول الأمر، وذلك قبل أن تطرأ عليه تأثيرات جاءته من الإسلام ومن الحضارة الأوروبية وفرضت النظام الذي يعتمد على الأب. ويبدو أن صلة الأمومية آتية من أعماق ما قبل التاريخ الإفريقي عندما أبرز الاستقرار الحاصل في العصر الحجري الجديد أهمية دور المرأة في بيتها إلى حد أن جعل منها العنصر المركزي في النظام الاجتماعي. ومند فجر الوعي كانت الأمومة تعني ولادة طفل ولكن انتسابه إلى أب ليس أمرا بدائيا. وفي البدء تسلط ظل الأم على الطفل، أما الأب فإما أنه لم يكن له وجود، أو أنه كان في أكثر الحالات شخصا صوريا. وقدرة ألم كبيرة بالنسبة إلى أي ذكر يمكن أن يعايشها[1]. فقد روى "هيرودوس" على ما ذكر الكعاك أن نظام الأمومة كان أيضا حالة من حالات المجتمع البربري تكون فيه السلطة للأم، بينما الأب غير معترف به شرعا وبذلك فإن الأبناء يتبعون خالهم في الميراث[2].

وعلى هذه الرواية يكون البربر أسبق الأمم إلى الاعتراف بحرية المرأة، فقد ذكر ابن خلدون قبائل منهم تنتسب إلى أمهاتها. فالقبائل البربرية بالقطر الجزائري متفرعة عن ثلاثة شعوب عظيمة, صنهاجة وكتامة وزناتة. وللعلم فإن زناتة (ايزيناتين) ومعناها أبناء زناتة, هو اسم امرأة تدعى "ناغزناتة"[3]. وقد نشر "بومان" بحوثا مهمة عن المظاهر المختلفة للحضارات الأفريقية التي عرض فيها مراحل التطور التاريخي التي مرت بها هذه الحضارات ومنها حضارة البحر المتوسط القديمة. فهي تشبه إلى حد كبير الحضارة السرتية, فقد دخلت من البحر المتوسط إلى قسم كبير من غربي السودان بين نهر السنغال وبحيرة تشاد, وتتميز بالحق الأمومي الموجود لدى البربر. حيث

يرجع هذا الحق من الوجهة التاريخية إلى الحضارة "الأيبرية الإيجية" في البحر المتوسط. لقد وصل هذا الحق إلى السودان مع الفتح البربري إلى غربي السودان ثم انتقل إلى ساحل الذهب وساحل العاج. واختفى في معظم المناطق الشمالية, بينما ظل محافظا على نفسه بين قبائل "الطوراق" و"البيجا" التي تعيش في مناطق نائية منعزلة[4].

إن النساء بوجه عام عند الطوراق هن الحارسات الأمينات على وجود النشاط الفكري والفني في القبيلة. فقد كن في العادة هن اللائي يعرفن القراءة والكتابة, وكن متعلمات، بعكس الرجال الذين كان من النادر أن نجد بينهم من يعرف القراءة, لقد كان من بينهن الشاعرات والموسيقيات اللائي حققن شهرة بين مواطنيهن, لكن الرجال كانوا يمضون أوقاتهم في تربية الجمال. فهل هذا يعني أن الانتساب يرجع إلى النساء في أقصى الجنوب؟

الظاهر أن طبيعة الحياة البدوية في الصحراء، هي التي أملت النظام الأموي الذي يعني سيادة الأم في الأسرة، عكس النظام الأبوي الدارج في مجتمعات الريف والحضر. فالارتحال بعيدا، سواء من أجل الرعي أوالسقي، وخاصة بالنسبة للجمال أو السفر مع قوافل التجارة يضع المرأة الباقية في الدار أمام مسؤولياتها، ليس في إدارة شؤون البيت والصغار والمسنين فقط، بل وفي الدفاع إذا ما اضطرتها الظروف إلى ذلك. ولما كانت التفرقة الأولية بين قيمة الرجل والمرأة قائمة على القوة الاقتصادية، فإن تقسيم العمل في المجتمعات البدوية يظهر الأهمية النسبية الكبيرة للمرأة. فإذا كان الرجل هو راعي الجمل بالامتياز فإن المرأة هي راعية الغنم والماعز بالتخصص.

حقيقة أن بعض النساء قد وصلن إلى مركز الزعامة كالكاهنة قديما, أو أن بعض عظماء الرجال من أهل الحرب والسياسة انتسبوا إلى أمهاتهم، كما هو معروف عند المرابطين، من ابن فاطمة وغانية أو فانو أيام بني تاشفين بالمغرب إلا أنه لم ينبغ من نساء الملثمين نابغة[5]. والمهم أن ذلك المجتمع "الأموي" الأفريقي، أي الذي يعتبر المرأة كعضو عامل في المجتمع, ويحترم مشاعرها كانسان عاقل له حقوقه المساوية لحقوق الرجل بالرضا والاختيار، استوحى مبادئ حقوق الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة من مصر القديمة ووادي النيل. ومن هناك انتشرت إلى السودان النيل بين البجاه والزنج والحبشة، وإلى شمال أفريقيا من حيث انتشرت إلى الصحراء الوسطى، وصارت من ثوابت العادات والتقاليد في الصحراء جنوبا، وفي السودان الغربي. وهاهو ابن خلدون عند الكلام عن نسب صنهاجة ولمطة ينسبها كما هي العادة إلى أبوين أسطوريين، هما صنهاجة ولمط، ويجعلهما أخوين وينسبهما إلى أمهما —وليس على أبيهما– وهي"تكسي العرجاء"ويرى ابن خلدون أنها تزوجت بأكثر من رجل من البتر والبرانس، وأنجبت أكثر من ولد صار أبا تاريخيا لقبيلة من القبائل، الأمر الذي يعني استقرار مبدأ النظام الأموي الذي يعني"تفوق الأم في العائلة البربرية".حيث يمكن الانتساب إليها وبالتالي تقنين كل ما يترتب في ذلك من امتيازات قانون الوراثة، وحقوق النبالة والشرف[6]. ويدعي الطوارق بأن الأم هي التي تحمل أبنائها قبل الولادة لهذا فهم أبناؤها وليس أبناء أبيهم. فإذا تزوجت المرأة من قبيلتها فأولادها يرجعون إلى نفس القبيلة، أما إذا كان الزواج من خارج قبيلتها فالأولاد لها وليسوا لأبيهم أو لقبيلته، وإذا توفي الزوج فإن الأولاد وأمهم يرجعون إلى قبيلة الأم، وإذا ظل الأب على قيد الحياة ووقع

انفصال بين الزوجين فإن الأولاد يبقون مدة معينة معه ثم يعودون بعدها إلى قبيلة أمهم[7].و إذا نشب نزاع فعليهم أن يتركوا قبيلة أبيهم ويحاربوا مع قبيلة أمهم بل حتى ضد أبيهم إذا اقتضى الأمر ذلك, فالنسب للأم[8]. ولتوضيح ذلك نضرب الأمثلة التالية:

1-إذا تزوج رجل من "كيل تاديك" بامرأة من قبيلة شريفة من "كيل فيروان" فإن الأطفال هم من "كيل فيروان" ويبقى الأولاد في رعاية أبيهم في حال طلاق أمهم وبعدها يرجعون على قبيلة أمهم.

2-إذا تزوج رجل نبيل من "كيل تاديك" بامرأة من "أمراد" فإن الأطفال هم "أمراد" من "كيل فيروان".

3-إذا تزوج رجل من امرأة رقيق من قبيلة أخرى فإن المرأة تصبح ملكا لقبيلة زوجها وذلك بدفعه مهرا لها ويرجع الأطفال إلى أبيهم.

وعليه يحدد النسب إلى الأم المكانة التي يشغلها الأولاد، فالنبيل هو الذي تلده أم نبيلة بغض النظر عن طبقة الأب, وهذا هو السبب في المحافظة على العنصر. كما أن قوانين الإرث تشير إلى قوة التقاليد الأمومية. أنظر مخطط العلاقات الأمومية التالي:

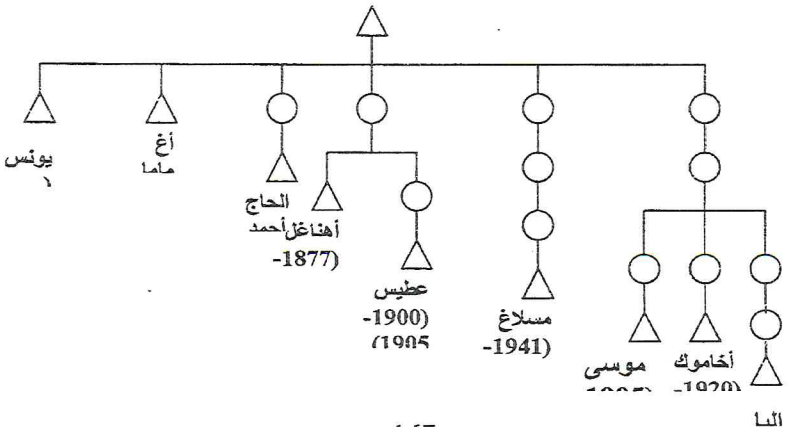

يوضح هذا الخط العلاقات الأمومية

-حرية المرأة في النظام الأموي:

الظاهر أن النظام الأموي الذي كانت تعرفه الكثير من قبائل الطوارق والذي يسمح بنوع من الحرية للمرأة البربرية كان السبب في ظهور أدب قصصي موضوعه العاطفة بين الرجل والمرأة من إنسانية رفيعة[9]. فلقد أساء عدد من الرحالة فهم معنى الحرية التي تتمتع بها المرأة الطارقية، ضمن إطار الحياة الاجتماعية الطارقية وما ردده بعض الكتاب الأوروبيين من القول بأن المرأة الطارقية في الهقار تهب نفسها للضيوف والأصدقاء قول لا أساس له من الصحة، وهو من الأساطير الكثيرة التي سجلها بعض السياح الذين كانوا تحت تأثير الاعتقاد بأنهم وحدهم الذين عرفوا الهقار وكتبوا عنه[10]. فالدور الذي تلعبه المرأة الطارقية في المجتمع الطارقي أدى بكثير من الأنثروبولوجيين القدامى والرحالة إلى إساءة فهم وتفسير معنى الحرية، وهذا ما أشار إليه "ابن بطوطة"بحيث اندهش من الحرية الممنوحة للنساء الطارقيات وكان ذلك نتيجة اعتماده على واقعة حدثت مع أحد أصدقائه وليس نتيجة لتعدد ملاحظاته ثم خروجه بنتيجة عن هذه الظاهرة، ومعنى ذلك أنه اعتمد على استقراء ناقص وذلك عندما رأى زوجة صديقه إلى جانب رجل غريب فرد عليه صديقه:" بأن علاقات النساء بالرجال في بلادنا علاقات طيبة وسليمة، وإنها علاقات قديمة وشريفة وهي فوق مثار الشبهات"[11]. في حين يرى "كلود بلونحرونون" أن الفكرة التي تقول بوجود ظاهرة الإباحة الجنسية، عند الطوارق فكرة مضللة من الأساس لكون أن

المرأة الطارقية متحكم فيها من طرف عائلتها، كما أن الإسلام سبق أن قضى شيئا فشيئا على نظام القرابة الأمومي، بالإضافة إلى أن الرؤساء أنفسهم أصبحوا يوصون لأبنائهم بالمسؤولية من بعدهم.

ثم يحدثنا "هنرلوت" H.Lhote الأنتروبولوجي الفرنسي الذي يقول "... من الصعب التأكيد على وجود الإباحية الجنسية عند الطوراق لكون أنهم يولون أهمية كبيرة لسمعة نسائهم وطهارتهن."[12] ونحن ندرك مدى بعد هذه الأقوال عن الحقيقة إذا عرفنا أن العرف المعمول به بين الطوراق يسمح للرجل الذي خانته زوجته بقتلها هي وصاحبها. ولقد أساء أيضا عدد من الرحالة فهم معنى الحرية في العلاقات القائمة قبل الزواج بين الفتيان والفتيات على بعض المناسبات التي تسمح للشباب من الجنسين أن يتعرف على بعضهما البعض. ومن أهم هذه المناسبات نجد:

-**التندي: Tendi** تحدث "التندي" عادة بعد الظهر وتقام في مناسبات مختلفة من أفراح الأسرة، مثل تسمية المولود أن جمع الإيجارات والحصص من الفلاحين والمزارعين.

-**الأهل:Ahal** تقام ليلا وتكون نقطة الارتكاز الأساسية فيها سيدة تعزف الموسيقى تنتمي إلى أسرة نبيلة، وتجلس السيدات على مقربة من خيمتها يلعبن" أمزاد" الذي يشبه" الكمنجة" يسمي عادة في المشرق "الربابة"[13] انظر الصورة.

صورة تعبر عن رقصة شعبية مجهزة بأحسن الألبسة مصحوبة بموسيقى خاصة بالطوارق

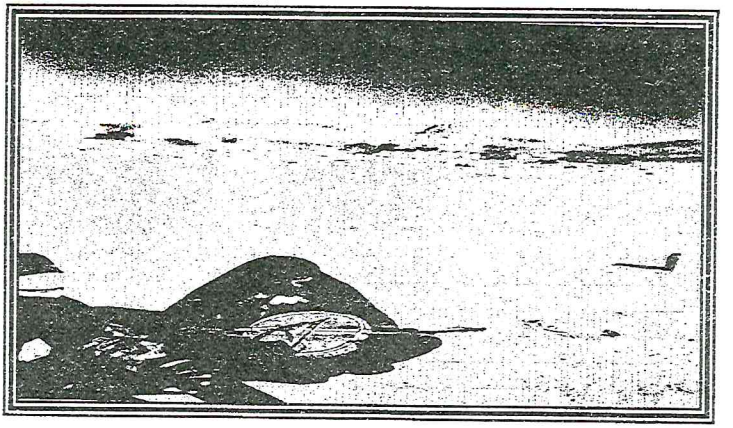

صورة لامرأة تعزف على آلة أمزاد تشبه آلة العود تعد من أجود الآلات الوترية عند الطوارق

يبدو أن الطوراق وحدهم في الحضارة الصحراوية هم الذين جعلوا مدى الحرية التي تتمتع بها المرأة واسعا وعريضا. يرث الطوارق الطبقة الوراثية التي عليها أمهاتهم، بغض النظر عن الطبقة التي ينتمي إليها الرجل, إلا أن الرجل الذي يتزوج سيدة أعلى طبقة منه ،فإنه ينال مكانة أعلى. ومعنى ذلك أن النساء الطارقيات يستطعن أن يتزوجن رجالا أقل منهن مترلة ولكنهن لا يفقدن شيئا من مكانتهن.

فما هي المكانة التي تحتلها المرأة الطارقية؟ أو ما هي المرأة عند الطوارق؟

تتمتع المرأة الطارقية بمكانة اجتماعية ممتازة، فهي قوية الشخصية وموهوبة وذكية وتساهم في الحياة العامة إسهاما مباشرا, وكثيرا ما تؤخذ

مشورتها في المجالس القبلية عند حل المنازعات ولها الحق في التملك، وتستمر في إدارة أملاكها حتى بعد الزواج دون أن يتدخل الزوج في ذلك. وعند وفاة المرأة تنتقل أملاكها وفق ما أقرته الشريعة الإسلامية, وحين ترحل القبيلة إلى مسافات بعيدة وتستقر في أراضي جديدة تقوم القبيلة بتوزيع تلك الأراضي على النساء اللواتي يترأسن أسرهن، أو كما يدعوهن Duveyrier باسم "السيدات المتوليات شؤون إدارة الأراضي عند الطوارق"[14]. كما تنظم المرأة الطارقية الشعر ولها أسلوبها الخاص في النظم والإلقاء والتعبير عن مشاعرها، تختار الفتاة الطارقية زوجها ولا تتدخل أسرتها في ذلك. وفي هذا المجال يذكر لنا الرحالة "ابن بطوطة " عند طوارق صنهاجة في جنوب "أيار" بخصوص المكانة التي تتمتع بها المرأة الطارقية قائلا: "وهن أعظم شأنا من الرجال، وشأن هؤلاء عجيب، وأمرهم غريب... ولا ينسب أحدهم إلى أبيه، بل ينتسب لخاله."[15] وعندما يتزوج الرجل سيدة تنتمي إلى طبقة أعلى من الطبقة الاجتماعية فإنه ينال بذلك مكانة أعلى. وإذا أراد أن يحافظ على مكانته الاجتماعية فعليه في هذه الحالة أن يتزوج إما سيدة من طبقته أو في مستواها وإما أعلى منها. فبالنسبة للزوجين أو بالنسبة للأطفال, فالمعمول به عند الطوارق أن الزواج لا يترتب عليه استبدال الأسماء أو التنازل عنها من أحد الطرفين, لكن الأطفال يحملون اسم أبيهم دون أمهم بدليل أن الطفل يرث المكانة القرابية التي كان يتمتع بها والده بعد وفاته، وفي الوقت نفسه يتبنى نفس علاقاته المزاجية.

وقد حاول مفكرون كثيرون تفسير انتقال القرابة من أموية إلى أبوية للعلم أنه في الشكل الأول كان صوريا فقط, وذلك في ضوء اعتبارات كثيرة أهمها:-تعلم الإنسان الزراعة واستقراره في الأرض, وبقاء الرجل

بجانب زوجته وأولاده, وظهورا آثار التصنيع والتمدن الحضاري ساهم في إيجاد مناصب شغل, كما أن التطور الديني أدى إلى الاستقرار الأسري[16]. وعليه فإن النظام القرابي المتبع عند الطوارق هو قرابة أبوية وليست أمومية, ويعني هذا الاصطلاح إرجاع علاقة القرابة التي تقوم على أسس الدم أو المصاهرة إلى جماعة الذكور في العائلة أو العشيرة أو القبيلة وذلك لأغراض اجتماعية معينة[17].

ويعود ابن خلدون من جديد ليؤكد أن الجد المشترك بينهما هو" مازغ" ولهذا فإن "مازغ" و"مدغس"مشتقان من أصل واحد هو "مزغ" ولعل اختيار "مازغ" الجد المشترك يتماشى مع التقليد الأبوي الاجتماعي وهو النمط الحضاري الذي يميز الليبيين كافة من ضمنهم الطوارق فهم أبناء "مازغ" ابن "كنعان" ابن "حام" فالانتساب إلى الأب واضح فيها. وتبقى كل تلك المجادلات التي دونها وكتبها الرحالة والمؤلفون حول القرابة الأمومية عند الطوارق تفتقر إلى الحجج المنطقية, ومعظم الامتدادات مبينة على أساليب المغالطة والجدل الوهمي.

الخاتمة:

كان لأثر الفتح الإسلامي خلال القرن السابع عشر والفتح الثاني الهلالي في القرن الحادي عشر دور كبير في اعتناق سكان طوارق الإسلام في كل نواحي الحياة, حيث صار الانتساب إلى الأب هو القاعدة, ودخل الإسلام في نظام الإرث, كما قام بدور كبير في تغيير الأنظمة السياسية والاجتماعية. ولا تزال مشكلة معرفة أصول وجذور حضارة الطوارق في أفريقيا الشمالية تتطلب أن نوسع آفاق إدراكنا في التاريخ وذلك بالرغم من غياب المصادر. ويتطلب الأمر منا أيضا أن نوسع مفاهيمنا في علم اللغة

والدلالة, فلا جدال في أن الألسنيات تنتمي إلى العلوم المجتمعية, فماذا تستطيع إذن هذه العلوم أن تقدم للباحث الاجتماعي في دراسة مشكلات القرابة؟ يجيبنا كلود ليفي ستروس بقوله أن "الألسنيون وفقهاء اللغة, هم الذين بينوا أن الفرضية التي كان عدد من الباحثين الاجتماعيين لا يزالون يتمسكون بها في ذلك الحين والتي تقول بوجود مخلفات أمومية النسب في العائلة القديمة، لا تتمتع بشيء يذكر من احتمالات الصحة"[18]. فيضع الباحث الألسني اشتقاقات لغوية تمكنه من إنشاء روابط بين بعض مفردات القرابة لم تكن ملحوظة على نحو مباشر. حيث في المدة الأخيرة ،تصدى "يول بنديكنت" بوصفه باحثا ألسنيا لسساتيم القرابة في آسيا الجنوبية وكان له أن يقدم مساهمة هامة في الاجتماعات العائلية في ذلك الجزء من العالم. ولهذا الغرض يبقى الاجتهاد في الموضوع قائما.

الهوامش

1. أرنو لد توينبي, تاريخ البشرية, الجزء الأول ترجمة: نقولا زيادة, الأهلية للنشر والتوزيع, بيروت, 1981, ص 283.
2. مبارك بن محمد الميلي, تاريخ الجزائر في القديم والحديث, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر, 1976 ص 116.
3. عبدالرحمن بن محمد الجيلالي, تاريخ الجزائر العام, الجزء الأول, دار الثقافة, بيروت, ط4, 1980ص 41.
4. عبدالجليل الطاهر, المجتمع الليبي, دراسات اجتماعية, دار الثقافة, بيروت, ط4, 1980 ص 87.

5. سعد زغلول عبد الحميد, تاريخ المغرب العربي, الجزء الثالث, منشأة المعارف,الأسكندرية,1990.ص. 120
6. نفسه,ص120.
7. محمد السويدي, بدو الطوارق بين الثبات والتغير, المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر,1986 ص 97.
8. عبدالجليل الطاهر, المرجع السابق, ص 123.
9. سعد زغلول, المرجع السابق,ص128.
10. إسماعيل العربي, الصحراء وشواطئها, المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر,1983 ص 177.
11. محمد السويدي, المرجع السابق,ص94.
12. نفسه, ص95.
13. عبد الجليل الطاهر, المرجع سابق,ص123.
14. نفسه,ص119.
15. ابن بطوطة, تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار, الجزء الأول, مطبعة مصطفى محمد, 1938ص 295.
16. مصطفى الخشاب, دراسات في الاجتماع العائلي, دار النهضة العربية, بيروت 1981 ص 55.
17. ر.بودون. ف.بوريكو,المعجم النقدي لعلم الاجتماع, ترجمة سليم حداد, ديوان المطبوعات الجامعية, الجزائر, ص 157.
18. كلود ليفي ستروس, الإناسة البنيانية, ترجمة: حسن قبيسي, المركز الثقافي العربي (ط1) 1995 ص 44.